

خزانة الأدب وغاية الأرب

وتأني لقد زادنا بحجبه في غيوم العزل علما بعلو مقداره وكان عزلا أظلمت بسببه الدنيا إلى أن من أبا على المسلمين بإبداره وقالت الأمة ذلك ما كنا نبغي واستوفى كل عالم شروط المحبة واستوعب وعلمنا أن الحكم العدل حكم بتقديم هذا الإمام بالموجب أنلنا وظيفته غيره فزلزلت الأرض زلزالها وقلنا يخف على قلبنا فأخرجت الأرض أثقالها وأظهرنا جلال العرب فأطلقوا أعنة بلاغتهم في ميادين الفصاحة وما أحقهم هنا بقول الفاضل وتناجدت أهل نجد فكل صاح يا صباحه وعلمنا أن هذا فضل رفل به أبناء العرب في حلل التقديم وأن الفضل بيد الأبي يؤتية من يشاء والأبي ذو الفضل العظيم وامتلاً صحن جامع القلعة بحلاوة هذه البشرية وهلل مؤذنوه وذكروا طلعتة الجلالية فكبروا وأنشدوا .

(لو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر) .

وأزهت هذه البشرية في ربيع ولكنه ربيع الأبرار الذي نزه الأبي روحه وريحانه عن كل نمام وصان فيه المسلمين ممن يأكل أموال الناس بالباطل ويدلي بها إلى الحكام ونشر الأبي أعلام كتب العلم وزاد الأبي بالسيف المؤيدي إسعافها وكانت ستور الجهل قد أسبلت على التفاسير فأظهر السر للآي كشافها أما القراءات فهي في قرى شيخ الإسلام وفضله فيها عاصم من الجهل ونافع وأما الحديث فهو مجلي مبهمات بنور جلاله الساطع وأما العربية فقد ظهر بعد وعرج العجم تسهيلها وشرعت بيوت العرب لشواهدا وأكرم نزيلها وأما المعاني فقد أظهر الأبي بيانها وجلت بها عروس الأفراح واهتدينا بنور جلالها ففتحت لنا أبوابها بغير مفتاح وأما المنطق فمقدمات منطق العذب أرتنا نتائج يقينا وأما العقلية فما رأينا لمن ناظره فيها في هذه المدة عقلا ولولا الحياء لقلنا ولا ديننا وها هو قد نبه الفقه من سنة الغفلة بعدما أمرض الجهل عيونه وأرمد والحاوي أظهر ما حواه من العلم بعدما كان هلك أسى وتجلد والروضة أزهت في حدائق هذه المسرة بين أوراقها فأينعت ومدت الشافعية أصول دوحتها فتفرعت وظهرت رفعة الرافعي في أفق كماله ونور الأبي ضريح الشافعي بنور سراج بهجة جلاله . ولما كان الجناب الكريم الجلال هو الذي ناظرناه بالغير فقال نور الشريعة وهو أشهر من نار على علم